ألف لام ميم

من سور القرآن الكريم ، تسع وعشرون تبدأ بحروف مفردة ، هى : الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون .

أما هذه السور فهى : البقرة ثم آل عمران فالأعراف فيونس فهود فيوسف فالرعد فإبراهيم فالحجر فمريم فطه فالشعراء فالنمل فالقصص فالعنكبوت فالروم فلقمان فالسجدة فسورة (يس) فص ، فسورة غافر ثم سورة فصلت فالشورى فالزخرف فالدخان فالجاثية فالأحقاف فسورة (ق) فالقلم .

وتتوالى هذه السور فى ثلاثة مواضع : فأولى تلك السور وثانيتها هى البقرة وآل عمران فى بداية المصحف الشريف ، ثم تأتى سورة الأعراف وهى السورة السابعة وحدها ، ثم تتوالى على التتابع فى السور العاشرة والحادية عشرة فالثانية عشرة فالثالثة عشرة فالرابعة عشرة فالخامسة عشرة ، ثم ينقطع تواليها حتى سورة مريم التاسعة عشرة لتليها سورة طه ثم يبدأ التتابع ثانية واضحًا ومتصلا فى موضعين : أولهما يبدأ بسورة الشعراء أى السورة السادسة والعشرين ، فتليها السورة السابعة والعشرون والثامنة والعشرون فالتاسعة والعشرون فالثلاثون فالحادية والثلاثون فالثانية والثلاثون ، ثم ينقطع التتابع ليستأنف بسورة يس وهى السادسة والثلاثون وسورة (ص) وهى الثامنة والثلاثون ، ليبدأ التتابع ثانية من السورة الأربعين إلى السورة السادسة والأربعين بلا انقطاع . ثم تأتى كل من سورتى (ق) وهى الخمسون ، و (القلم) وهى الثامنة والستون ، كل فى موضع كما ترى .

وقد تحدث بطبيعة الحال جميع المفسرين القدامى والمحدثين ، عن هذه الحروف ، وقد اخترنا أن ننقل بصددها بعض ما أورده الإمام

أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى فى مدارك التنزيل وحقائق التأويل قال :

« ألم ونظائرها أسماء : مسمياتها الحروف المبسوطة التى منها ركبت الكلم : فالقاف تدل على أول حروف (قال) والألف تدل على أوسطها واللام تدل على الحرف الأخير منها . وكذلك ما أشبهها ، ثم الجمهور على أنها أسماء السور ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : أقسم الله بهذه الحروف . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إنها اسم الله الأعظم . وقيل إنها من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله ، وما سميت معجمة إلا لإعجامها وإبهامها .

« وقيل ورود هذه الأسماء على نمط التصدير كالإيقاظ لمن تحدى بالقرآن كالتحريك للنظر فى أن المتلو عليهم قد عجزوا عنه عن آخرهم ، كلام منظوم من عين ما ينظمون من كلامهم ، ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أنه لم تتساقط مقدرتهم دونه ، ولم يظهر عجزهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة ، وهم أمراء الكلام ، إلا لأنه ليس من كلام البشر ، وأنه كلام خالق القوى والقدر . وقيل إنما وردت السور ليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلا بوجه من الإغراب وتقدمه من دلائل الإعجاز ، وذلك أن النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام ، الأميون وأهل الكتاب ، بخلاف النطق بأسامى الحروف ، فإنه كان مختصاً بمن خط وقرأ ، وخالط أهل الكتاب ، وتعلم منها ، وكان مستبعداً من الأمى التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة ، مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله ، حكم الأقاصيص المذكورة فى القرآن ، التى لم تكن قريش ومن يضاهيهم فى شىء من الإحاطة بها ، وأن ذلك من جهة الوحى ، وشاهد على نبوته » .

ثم أورد النسفى حقائق عن هذه الأحرف فقال :

« واعلم أن المذكور فى الفواتح نصف أسامى حروف المعجم ،

وهى الألف واللام والميم والصاد والراء ، والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون فى تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ، وهى مشتملة على أنصاف أجناس الحروف ، فمن المهموسة نصفها : الصاد والكاف والهاء والسين والحاء . ومن المجهورة نصفها : الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون . ومن الشديدة نصفها : الألف والكاف والطاء والقاف . ومن الرخوة نصفها : اللام والميم والراء والصاد والهاء والسين والعين والحاء والياء . ومن المطبقة نصفها : الصاد والطاء . ومن المنفتحة نصفها : الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون . ومن حروف القلقلة نصفها : القاف والطاء .

ثم قال : واختلفت أعداد حروفها : مثل ص ، ق ، ن ، طه ، طس ، يس ، حم ، ألم ، الر ، طسم ، المص ، المر ، كهيعص ، حم عسق ، فوردت على حرف وحرفين وثلاثة وأربعة وخمسة ، كعادة افتتانهم فى الكلام . وكما أن بنيته على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف سلك فى الفواتح هذا المسلك » .

وما أورده النسفى فى جملة ، هو ما ذهب إليه المفسرون ، وقد جمع القرطبى هذه الأقوال على نسق آخر ، ننقل منه :

قال عامر الشعبى وسفيان الثورى وجماعة من المحدثين هى سر الله فى القرآن ، ولله فى كل كتاب من كتبه سر ، فهى من المتشابه الذى تفرد الله بعلمه ، ولا يجب أن يتكلم فيها ، ولكن نؤمن بها ، ونقرؤها كما جاءت . وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق وعن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وذكر عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطعة من المكتوم الذى لا يفسر . وقال أبو حاتم لم نجد الحروف المقطعة إلا فى أوائل السور ، ولا ندرى ما أراد الله جل وعز بها .

ثم قال القرطبى : عن الربيع بن خيثم قال : إن الله تعالى أنزل هذا

القرآن فاستأثر بعلم ما شاء وأطلعكم على ما شاء ، فأما ما استأثر به فلستم بنائليه ، فلا تسألوا عنه ، أما الذى أطلعكم عليه فهو الذى تسألون عنه وتخبرون به ، وما بكل القرآن تعلمون ، ولا بكل ما تعلمون تعملون .

ثم قال القرطبى : وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن نتكلم فيها ، ونلتمس الفوائد تحتها ، والمعانى التى تتخرج عليها .

ثم قال إن ابن عباس ذهب إلى أنها اسم الله الأعظم ، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها . وقال قطرب والفراء وغيرهما . هى إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن وأنه مؤتلف من حروف هى التى منها بناء كلامهم . قال قطرب : كانوا ينفرون من استماع القرآن فلما سمعوا « آلم » و« المص » استنكروا هذا اللفظ ، فلما أنصتوا له ، صلى الله عليه وسلم ، أقبل عليهم القرآن المؤتلف ليثبته فى أسماعهم وآذانهم ، ويقيم عليهم الحجة وقال جماعة : هى حروف دالة على أسماء أخذت منها ، وحذفت بقيتها كقول ابن عباس وغيره : الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد صلى الله عليه وسلم . وقالوا : الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف ، والميم مفتاح اسمه مجيد . وروى عن ابن عباس قوله : « ألم » أنا الله أعلم . و« الر » أنا الله أرى و « المص » أنا الله أفصل .

وقال القرطبى : من عادة العرب التكلم بالحروف المقطعة ومن ذلك قول الشاعر : فقلت لها قفى فقالت « قاف »

أراد فقالت وقفت ، كما قال عليه السلام ، « كفى بالسيف شا » معناه شافيا .

وقال زيد بن أسلم : هى أسماء للسور . وقال الكلبى هى أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها وهى من أسمائه عن ابن عباس أيضا . وردّ بعض العلماء هذا القول فقالوا : لا يصح أن يكون قسما لأن القسم معقود على حروف مثل : إن ، وقد ، ولقد ، وما ، ولم يوجد هاهنا

حرف من هذه الحروف . والجواب أن يقال : موضع القسم قوله تعالى : لا ريب فيه ، فلو أن إنساناً حلف والله هذا الكتاب لا ريب فيه ، لكان الكلام سوياً ، وتكون « لا » جواب القسم فثبت أن قول الكلبي وما روى عن ابن عباس سديد صحيح .

ثم قال القرطبي : « فإن قيل ما الحكمة فى القسم من الله تعالى ؛ وكان القوم فى ذلك الزمان على صفتين : مصدق ومكذب ، فالمصدق يصدق بغير قسم ، والمكذب لا يصدق مع القسم . قيل القرآن نزل بلغة العرب ، والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه . والله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنده . وقال بعضهم (ألم) أى أنزلت عليك هذا الكتاب . من اللوح المحفوظ . وقال قتادة فى قوله (ألم) قال اسم من أسماء القرآن ، وروى عن الترمذى أن الله أودع جميع ما فى تلك السورة من الأحكام ، والقصص فى الحروف التى ذكرها فى السورة ، ولا يعرف ذلك إلا نبى أو ولى ، ثم بين ذلك فى جميع السورة ، ليفقه الناس » .

وجمع الطبرى هذه الأقوال وغيرها ننقلها عنه مجملة :

عن قتادة : « الم » اسم من أسماء القرآن . هو مذهب كل من مجاهد وابن جريج .

وعن مجاهد أيضاً : « الم فواتح يفتح الله بها القرآن » .

وعن زيد بن أسامة : هى أسماء السور .

وعن ابن عباس : هى اسم الله الأعظم .

وعن ابن عباس أيضاً : هو قسم أقسم الله به ، وهو من أسماء الله .

وعن ابن عباس كذلك وعن سعيد بن جبير وعن ابن مسعود : هى حروف مقطعة من أسماء وأفعال : كل حرف من ذلك لمعنى غير معنى الحرف الآخر .

وعن مجاهد فواتح الصور كلها « ق » و « ص » و « حم » و « طسم »

و « ألر » وغير ذلك هجاء موضوع .

وعن الربيع بن أنس : هى حروف يشتمل كل حرف منها على معان شتى مختلفة فالألف مفتاح اسمه « الله » ، واللام مفتاح اسمه « لطيف » ، والميم مفتاح اسمه « مجيد » . الألف آلاء الله ، واللام لطفه ، والميم مجده . واللام ثلاثون سنة ، والميم أربعون سنة .

وقال بعضهم هى حروف الجمّل . وقال الطبرى : كرهنا ذكر الذى حكى عنه ذلك ، إذ كان الذى رواه ممن لا يعتمد على روايته .

وجاء فى التفسير الذى نشرته مجلة منبر الإسلام :

« هذه حروف ابتدأ بها الله سبحانه وتعالى ، ليشير بها إلى إعجاز القرآن الكريم المؤلف من حروف كالحروف التى يؤلف منها العرب كلامهم ، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن ، وهى مع ذلك تنطوى على تنبيه للاستماع لتميز جرسها » .

وجاء فى التفسير الوسيط :

(ألم) افتتح الله بعض سور القرآن بأسماء بعض الحروف وعددها ثمانية وسبعون حرفًا فى جملة السور ، وهى تكرار لأربعة عشر حرفًا ، فى أوائل تسع وعشرين سورة ، ومنها سورة البقرة ، وأولها (ألم) وقد ذهب كثير من السلف إلى أن معانى هذه الحروف وأغراضها سر من الأسرار التى استأثر الله تعالى بعلمها ، فتكون من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله .

« أما علماء الخلف فقد حاولوا ببيان المقصود منها ، لأن القرآن جاء بلغة العرب ، ليفهموه . ومن أحسن ما قيل فى ذلك أنها تشير إلى إعجاز القرآن لأنه مكون من كلمات أساسها هذه الحروف التى تنظمون منها أيها العرب كلامكم ، ومع ذلك عجزتم عن أن تأتوا بمثله ، وفيكم الفصحاء والبلغاء ، فإذا جاء به النبى الأمى ، فالله تعالى هو الذى أنزله ، ولم يأت به من عند نفسه ، لأنه مثلكم فى الفصاحة ، فإذا

عجزتم عن الإتيان بمثله ، فهو مثلكم فى ذلك ، فالقرآن فوق مقدرة البشر جميعًا . ومن أحسن ما قيل أيضًا أن المشركين قد تضافروا على ألا يسمعوا القرآن (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ، لعلكم تغلبون) .

وجاء فى تفسير المنار : (ألم) هو وأمثاله أسماء للسور المبتدأة به ، ولا يضر وضع اسم الواحد (الم) لعدة سور لأنه من المشترك الذى يعين معناه اتصاله بمسماه ، وحكمة التسمية والاختلاف فى (ألم) و(المص) نفوض الأمر منها إلى المسمى سبحانه وتعالى ، ويسعنا فى ذلك ما وسع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم . وليس من الدين فى شىء أن يتنطع متنطع فيخترع ما يشاء من العلل التى قلما يسلم مخترعها من الزلل ، وقد أسند التفسير هذا الرأى للشيخ محمد عبده .

ونحب أن نورد بعض ما لاحظناه بصدد هذه الحروف ، وموضعها فى القرآن الكريم .

أولا : أن هذه الحروف المفردة ، لا تأتى إلا فى أوائل السور .

ثانيًا : أنها لا ترد فى أوائل السور إلا مقرونة بذكر القرآن ، وبتأكيد من الله تعالى أنه هو الذى نزله على رسوله بالحق .

ثالثًا : استثناء من هذه القاعدة ، وردت هذه الألفاظ ، فى موضعين اثنين فقط من القرآن الكريم ، غير مقرونة بذكره أو بآياته ، وذلك فى سورة العنكبوت : (ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) ، وفى سورة الروم : (ألم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) .

رابعًا : لم يذكر القرآن الكريم أو آياته فى أوائل سور القرآن البالغ عددها أربع عشرة سورة ومائة ، غير مسبوق بهذه الألفاظ المفردة إلا فى سورتى الفرقان والزمر التى استفتحت بقوله تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ،

فاعبد الله مخلصاً له الدين) .

وقد وقعت سورة « الزمر » ، بين سورتين بدأتا بالألفاظ المفردة ، مقرونة بذكر القرآن الكريم .

خامساً : لم يرد قسم فى القرآن من الله تعالى إلا فى أوائل السور ، من مثل (والعاديات ضبحاً) (والضحى والليل) ؛ (والليل إذا يغشى) ، (والشمس وضحاها) ، (لا أقسم بهذا البلد) ؛ « والفجر وليال عشر) ، (والسماء والطارق) ، (والسماء ذات البروج) (والنازعات غرقاً) ، (والمرسلات عرفاً) ، (لا أقسم بيوم القيامة) .

ننتقل بعد ذلك إلى التأمل فى منهج القرآن ، فى القسم ، فهو يقسم بأشياء تبدو لنا صغيرة الشأن قليلة القيمة ، كالتين والزيتون ، أو كالعاديات أو الخيل أو ببلد كمكة ، أو بالظواهر الطبيعية كالليل والفجر ، والشمس والقمر ، وبالرياح وبالنجوم ومواقعها وهو قسم يقول الله تعالى عنه : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) .

وغاية القرآن الكريم من القسم بهذه الأشياء الصغيرة الشأن ، وبهذه الظواهر الطبيعية التى هى أثر من آثار قدرة الله ، وبالنجوم والكواكب التى هى من مخلوقاته عز وجل أن يلفت نظر الإنسان إليها للتأمل فيها ، والنظر فى النظام الذى تكون جزءاً منه ، ليزداد علماً وحكمة وفهماً لأحكام القرآن ، ولأصول الدين ، لأن الدين أساسه التسليم بقدرة الله ، وبعجز الإنسان أمامه وبحاجته إلى حمايته ورعايته سبحانه وتعالى ، وأنه بار بعباده رءوف بهم ، وأن كل ما يجرى عليهم مما يبدو لهم منطوياً على الخير أو الشر يمكن أن يزيدهم قوة ، لو ازدادوا فهماً لأحكام هذا الكون ونظامه ، وإدراكاً لسننه الثابتة التى لا تتحول ولا تتبدل .

وقد علمنا الله تعالى فى كتابه : (إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) ، وقد ضرب لنا فعلا مثلا بالذبابة وخلقها فقال :

(إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له ؛ وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) .

فالقسم بالحروف لا ينبو عن أسلوب القرآن البيانى ؛ ولا منهجه الفكرى ، بل يتسق معهما ويتفق . وهو فى المواضع التى وقع فيها مفهوم تمامًا بطبيعة الحال ، لأنه يتحدث عن القرآن الذى هو كتاب ؛ ولأنه كتاب فهو يتكون من ألفاظ ، تتكون بدورها من حروف . فمادة الكتاب هى الحرف به يبدأ ومنه ينشأ ، وتنشأ أجزاؤه الصغرى فالكبرى ؛ وعن طريقه تتدفق الأفكار ، وتنتقل من القائل إلى السامع ، ومن المخاطب إلى المخاطب به . والدعوة إلى تأمل الأشياء الصغيرة التى هى أصل الأشياء الكبيرة ، هى رسالة الإسلام العقلية والروحية معًا . فهو يتحدث كثيراً عن الذرة ، ويلفت النظر إلى (لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) ، (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء) ، (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) ، (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) ، (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره) ، (وإن تك مثقال حبة من خردل أتينا بها) ، (إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله) .

فليس إذن عند الله شىء حقير مهما صغر ، ولا يخرج عن نظامه أمر مهما بدا تافهًا ، قليل الشأن ؛ بل إن الله يذكر الإنسان المرة بعد المرة ، بأنه من (ماء مهين) وبأنه (خلق من صلصال من طين) بل إن الشيطان طرد من رحمة الله ، وأقصى عن الجنة لأنه لم يفهم حكمة الله ، وأبى أن يفتح عقله لنوره ، إذ رفض أن يسجد لآدم ، لمجرد أن (آدم) خلق من طين ، واعتبر نفسه خيراً منه لأنه خلق من نار : (قال أأسجد لمن خلقت طينًا ؟) ، (قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين) .

فالتأمل فى الصغير والضئيل من الأمور ، أو ما يبدو صغيراً وضئيلا ، من أساليب القرآن ومناهجه فى تعليم البشر ؛ وتعويدهم احترام مخلوقات الله ؛ واستظهار قدرته ؛ وعظمته فى أصغر ما خلق : (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) ؛ (ألم نخلقكم من ماء مهين ؟) .

فإذا كان القرآن قد وجه الخطاب إلى الكفار والمشركين ، والمسلمين والمؤمنين ؛ فى شأن القرآن الكريم ، فى كونه كتاب الله ؛ وكونه منزلا على رسوله ؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ؛ وليحتمل فى سبيل ذلك ؛ أن ينصرفوا عن سماعه وأن يشكوا فى صدقه ، وأن يلغوا فيه ، فهذا موضع تجب فيه الدعوة للتأمل فى أصل هذا الكتاب ، وهذا التأمل سيستدرج المتأمل إلى التفكير فى الكتب عموماً ، ما سبقت القرآن ، وما خطه الناس بأيديهم ؛ وسينتهى به التفكير إلى أن هذه الكتب ، تتكون من حروف صغيرة ، تنشأ منها جمل ، فماذا تكون هذه الحروف ؟ هى علامات لأصوات تصدر عن الإنسان ، ومثال هذه الأحرف : الألف واللام والميم والراء والهاء والصاد . إلخ . فهل يعرف العرب هذه الحروف ؟ ثم هل يدرون أنها قادرة على أن تنقل الفكر من رأس إلى رأس ، ثم من مكان إلى مكان ، ثم من زمان إلى زمان ، ثم من أمة إلى أمة . فإذن هى أداة خطيرة وفعالة ، وليست كما تبدو علامات لا قيمة لها ، ولا وزن . بل إنها جديرة بأن نتعلمها ، وبأن نعلمها أولادنا . وأخيراً هى جديرة بأن نفكر فيمن خلق لنا هذه الحروف ، وأجراها أصواتاً على ألسنتنا ؛ وجعلنا قادرين على التخاطب بها . فإذا كان الله هو الذى تفضل علينا بهذا كله ، فهذا الخالق العظيم ، يقسم لنا بهذه الحروف الصغيرة ، بأنه كما خلقها ، وكما علمنا إياها ، خلق منها هذا الكتاب .

ولذلك جاءت هذه الأحرف ، فى أوائل السور ، متنوعة ، تصدر من الحلق ، وتصدر عن الشفتين ، مهموسة ومجهورة ، خفيفة وشديدة إلى آخر ما قاله الإمام النسفى .

وقد يكون الإنسان قادراً على أن يتصور أن فى وسع كتاب أن ينقل الناس من حال إلى حال ، ولكن أن يكون الحرف الصغير قادراً على هذا ، فأمر يحتاج إلى تنبيه وإيقاظ ، وإلى ما يشبه الصدمة ، فإذا أقسم الله العظيم ، خالق كل شىء بالحرف فإن هذا القسم إذا فهمناه ، يفتح لنا عالمًا من التأملات فى هذا الكون الرحيب الفسيح الذى خلقه لنا الله ، وسخر لنا فيه القمر والشمس ، والبحار والأنهار ، ومهد لنا سبلا نسلكها ، ونزداد بفضلها قوة وعلمًا . إن التفكير فى الحروف وخلقها وخالقها ، أفعل فى نفس الإنسان وعقله من التفكير فى خلق السموات والأرض ، وفى اختلاف ألسنة الناس وألوانهم . لأن هذه الحروف ، تصدر عن الإنسان نفسه ، ولا تكلفه جهداً ، وهو لا يكف عن النطق بها ، وهى مع ذلك تغير أحوال الناس ، وتعلمهم ، وتزيدهم قوة ، وهى سبيل الإنسان ليقرأ هذا القرآن ويفهمه .

فالقسم بالحروف فى القرآن ، هو مظهر من أجل وأكبر مظاهر عظمة القرآن والإسلام معًا . فالكتاب الذى بدأ بقوله (اقرأ) ، هو الكتاب الجدير بأن يتضمن قسمًا من الله بالحروف . فليس ثمة سبيل للقراءة ، إلا بمعرفة هذه الحروف وتعلمها وتعليم الغير إياها .

إذن هذه الحروف قد وردت فى أوائل تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم — وهو عدد حروف الأبجدية كلها — ليقسم بها الله العظيم ، إظهاراً لعلو مقامها ، وكشفًا عن أنها أصل المعرفة ، وأنها باب العلم ، وهو يقسم بها ، على حقيقة عظيمة أخرى ، هى أن القرآن من عنده ، وأنه لا يتكون إلا منها ، ولا يوجد إلا بها ، ليتحقق بهذا القسم فى وقت واحد نفعان جاء الإسلام ليحققهما للإنسان : أن يزيد من قدر العلم والمعرفة عنده ، وأن يدفعه إلى الاستزادة منهما .

والثانى أن هذا العالم الكبير مفاتح السيطرة عليه والانتفاع به باعتباره مسخراً لخدمة الإنسان المؤمن الصادق العالم ، مفاتح هذا

العالم ؛ هى أمور صغيرة فى رأى العين ، كالحروف . فعلى الإنسان أن يبحث عنها ، ويحيط بها ، لكى يكون قوياً قادراً ، وعالماً مؤمناً ، وسعيداً صالحاً . إن هذه الأحرف كما قلنا ، قادرة على أن تنقل الإنسان من الجهل إلى العلم ، ومن الظلام إلى النور ، ومن الضعف إلى القوة . فتأمل أيها الإنسان فى قدرة الخالق العظيم ولا يهولنّك هذا الكون الفسيح ، ولا تتضاءل أمام ضخامته ، وترامى آفاقه ؛ فإنك سيده بالعلم ، والعلم كما تريك الحروف ، سهل ميسور ، إن حرصت عليه ، والتمست السبيل إليه .

يتضح من كل ذلك أن التكلم فى الحروف المفردة ، الواردة فى تسع وعشرين موضعاً من القرآن الكريم ، فيه خير كثير ، ومنافع للناس عظيمة ، وبذلك يكون واجباً ، كما قال بذلك عدد من التابعين الصالحين ، والمفسرين السابقين ، ومع ذلك فإن حجة المذهب القائل بأن هذه الأحرف والغاية منها مما استأثر الله بعلمه ، فنفوض الأمر فيها لله ، قائمة على أن الأحرف بطبيعتها لا تحمل بذاتها معنى ، فهى ليست كالأفعال والأسماء ، فالذى يقول (ألف) أو (ميم) فإنه لم يقل شيئاً ، وما دام الله تعالى ، قد اختار أن يستفتح بها عدداً فى سور كتابه ؛ فلا يجوز لنا أن نقول إن هذه الأحرف تعنى شيئاً ما ، تدركه أفهام البشر ، لأنها فى واقع الأمر ، لا تعنى شيئاً مما تعارف عليه الناس ، وكل محاولة منا ، لإسناد المعانى إليها ، هى رجم بالغيب ، لا يأمن الإنسان فيها الوقوع فى الخطأ .

إلا أن القرآن فى جملته وتفصيله ، خطاب موجه إلى الناس ، ليفهموه وليتدبروه ، ويعوا من حياتهم ، ومن الكون الذى يحيط بهم ، أموراً كانوا يجهلونها يهتدوا إلى سبل كانوا لا يفكرون فيها ، وإن العلم بهذه الأمور ، والاهتداء إلى تلك السبل ، بمثابة الخروج من الظلام إلى النور ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن المهالك إلى الطمأنينة والسلام . ونسبة

الاستغلاق والغموض المطلق إلى شيء فى القرآن ، من لفظ أو معنى ، مما لا يتفق مع رسالة الذكر الحكيم ، ولا مع إنزاله على رسوله ، وتكليف الرسول بتبليغه ، وقد تواترت الآيات الدالة على ذلك ؛ ففى سورة القمر وحدها ثلاثة مواضع جاء فيها : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) كما جاء فى سورة الإسراء : (ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا) ، وفى سورة فصلت : (ولو جعلناه قرآنًا أعجميًّا لقالوا لولا فصلت آياته) ، وفى سورة الزخرف : (إنا جعلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون) ، وفى سورة إبراهيم : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) ، وفى سورة محمد : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .

فكل ما فى القرآن معروض على أفهام الناس وعقولهم ، ليحاولوا فهمه ، والانتفاع بما يفهمونه ، وهم بطبيعة الحال متفاوتون ذكاء وصبراً ، كما تتفاوت حظوظهم من توفيق الله ، ولكنهم مهما ضؤل نصيبهم من القدرة العقلية ، ومن استطاعة الإدراك والتحصيل ، فهم مطالبون بأن يستعينوا بغيرهم ممن هم أكثر علمًا ، وممن يستطيعون أن يفقهوا الناس : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) ، (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) ، فالجهاد الذى هو أعلى مراتب الإيمان ، لا يخرج إليه المسلمون كافة ، لكى يفرغ بعضهم للعلم والتفقه : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) ، وليس معنى ذلك ، أن الله لم يستأثر بعلم الكثير (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ، ولكن هذا الذى استأثر به الله نفهم ما جاء بشأنه فى القرآن ، ولا يكون للمسلمين كرطانة الأعاجم ، أو من قبيل المعميات التى تكون عنصراً فى أديان أخرى ، فالله تعالى قال : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) ، فنحن نقرأ هذا الكلام فنفهم منه كل كلمة فيه ، ونفهمه جملة واحدة ، وندرك من كلماته ومن معناه أن الله تعالى ينهانا عن الخوض فى موضوع الروح ،

ولكنا نعرف كلمة الروح ومدلولها ، وإن كنا لا ندرى طبيعة هذه الروح ولا كنهها .

كذلك جاء فى القرآن الكريم عن الساعة ، وموعد قيامها : (يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله) ، (إن الله عنده علم الساعة) ، (يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى) .

وليس معنى هذه الآيات الصريحة البينة أن المسلمين لا يفهمون ما المقصود من الساعة ، وأنهم لا يجوز لهم أن يفهموا معناها ، وأن يشرحوا هذا المعنى لمن لا يفهمه جيداً ، فهذا كلام عربى مبين ، واضح ظاهر ، ولكن الذى لا نعلمه ، ولا يحق لنا أن نخوض فيه ، هو موعد قيام الساعة ، لأن الله قال بصراحة إنما علمها عنده وحده سبحانه وتعالى .

وكل المذاهب الأخرى فى تفسير الألفاظ المفردة التى تقول إن هذه الألفاظ أجزاء من أسماء أو أفعال ، صرح ببعضها ، وأخفى بعضها الآخر ، أو أنها أسماء لله سبحانه وتعالى ، فنحن لا نقف أمامها لنناقشها واحداً واحداً ، وإنما نقول إن كل هذه الآراء لا تتفق مع روح الإسلام ، وجوهر أحكامه ، فالإسلام دين صريح واضح يصل فى صراحة أحكامه ، ووضوح قواعده ، إلى أقصى الحد ، فهو خال تماماً من الألغاز والغموض ، وليس فيه علم يبذل للكافة ، وعلم يستأثر للأحبار ورجال الدين ، إنما هو علم أبوابه مفتحة لكل مجتهد ، وما دام طالب العلم يتوسل إليه بوسائله البشرية ، من الاجتهاد ، وخلوص النية ، وصدق الرغبة ، وسؤال من يعلم ، والصبر على البحث وتحضير وسائله ، فله الحق فى أن يؤمل فى الوصول إلى مراتب العلم ، فليس فى الإسلام كهنوت ، ولا هيئة تفرض رأيها على المسلمين بجاهها ، أو سلطانها ، ولو كان جاه العلم ، فلكل مسلم أن يختار لنفسه الرأى الذى يرتضيه ، ما دام قد وصل إليه بنفسه ، أو بالاستعانة بسؤال ، ممن يحق لهم النظر فى أحكام الدين ، والفتوى فيها .